# جبهة جديدة

بادرت جمهورية البندقيّة إلى تحريض حلفائها في آسيا ضدّ الدولـة العثمانيّـة بعدما لم تلقَ الدعم المأمـول من ملك المجر "ماتيـاس (*Matthias*)" ولـم تحقق النجاحات التي رغبت بها في حروبهـا فـي الغرب، وببـدء قبيلتي "بنـي قَرَمَـان" و"آقْ قُيُونْلُو" بالهجـوم علـى العثمانيّيـن من ناحيـة الأناضول؛ أُسّسـت جبهةٌ جديدةٌ في هذه الحرب الكبرى.

لقد سيطر "إسحاق بك" على دولة "بني قَرَمَان" في الأناضول بعدما حصل على دعم حاكم قبيلة "آقْ قُيُونْلُو" "أُوزُونْ حسن"، منتصرًا بذلك على خصومه في الصراع على العرش الذي نشب بعـد وفاة "إبراهيـم بك"، وبهـذه الطريقة نجح "أُوزُونْ حسـن" في زعزعة نفوذِ العثمانيّين المتنامي في منطقة وسـط الأناضول، وبعد وفاة "إسحاق بك"، صعد "بِيرْ (*Pir*) أحمد" إلى عرش دولة بني قَرَمَان، وطالب العثمانيّين بإعادة بعض القلاع التي اسـتولوا

عليها في الماضي، واثقًا في دعم قبيلة "آقْ قُيُونْلُو" له، ما دفع السلطان محمد الفاتح إلى اتّخاذ قرارٍ بتنظيم حملةٍ عسكريّةٍ إلى الأناضول، وقد أراحت وفاة "أحمد بك" حاكم ألبانيا في ذلك الشتاء السلطانَ الفاتح بعض الشيء، وبدأ بفتح قنوات المفاوضات مع البندقية والمجر من جديد، حتى إنه أخذ في مراوغتهم بعدما أشعرهم بإمكانية تقديم بعض التنازلات للتوصّل إلى اتّفاق.

دخل السلطان الفاتح أراضي "بني قَرَمَان" عام (١٤٦٨م)، وأجلس ابنه الأمير مصطفى على عرش "قونيا" بعدما استدعاه من "مَانِيسَا"، ثم عاد إلى إسطنبول، وبهذه الحملة العسكرية يكون السلطان قد خاطر بالصراع الكبير في منطقة وسط الأناضول، إلا أن "بِيرْ أحمد بك" انتهز فرصة عودة السلطان محمد الفاتح إلى إسطنبول، ثم خروجه في غزوة إلى جزيرة "وابية" عام (١٤٧٠م)، واستردّ أراضيه بهجومٍ مضادّ، فبادر العثمانيون إلى شنّ حملةٍ كبيرةٍ للسيطرة على كامل أراضي "بني قَرَمَان" عام (١٤٧١م).

وقّع أربعة من رُسل "أُوزُونْ حسن" اتفاقيّة تحالفٍ جديدةٍ ضدّ العثمانيّين مع دُوق البندقية عام (١٤٧١م)، ونصّت الخطّة على التالي:

يرسل الأسطول الصليبي قوّةً بحريّةً إلى منطقة "قَرَمَان" عبر سواحل البحر المتوسط، ثم تنضمّ قوّات "أُوزُونْ حسن" إلى هذه القوّات بعد ذلك، وبهذا تكون قضيّة قَرَمَان قد تحوّلت إلى قضيّة دوليّة، وفي الواقع، فإنه اعتبارًا من صيف عام (١٤٧٢م) بادر أسطول صليبيّ مكوّن من سفن "البندقية" و"نابولي" و"رودس" و"الفاتيكان" و"قبرص" بإثارة الرعب في مياه البحر المتوسط، فدمّر مدينتي "أَنْطَالْيَا" و"إِزْمِيرْ" بشكلٍ كبيرٍ، واستطاع

القَرَمَانيّون الذين تحالفوا مع هذا الأسطول الاستيلاء على القلاع الموجودة بالمنطقة في ربيع عام (١٤٧٣م)، لكن السلطان محمد الفاتح أرسل فِرَقًا من مغاوير الروملي إلى "سيواس" في الشرق، غير مبالٍ ببرودة الشتاء، وسار بجيشِهِ الجرّار في الربيع إلى "أرزينجان"، وهو الأمر الذي حال دون اتّحاد جيش قبيلة "آقْ قُيُونْلُو" بالجيش الصليبي، وكان كلّ شيءٍ يبدو وكأنّه مرتبِطٌ بنتيجة المعركة التي دارت رحاها في مدينة "أُوتْلُوكْبَلِي (*Otlukbeli*)"، وقد أدرك السلطان الفاتح أن الوضع يحتاج مزيدًا من الدّقّة والتركيز.

# معركة "أُوتْلُوكْبَلِي"

تمكّن "أُوزُونْ حسن بك" من الاستيلاء على العاصمة "ديار بكـر" والقضـاء على الصراعـات القائمة على السـلطة في العام الذي فتح فيه العثمانيّون القسـطنطينيّة، ونجح في التخلّص من جميـع منافسيه خلال عدّة سنوات، وحوّل دولة "آقْ قُيُونْلُو" إلى إمبراطوريّـة مترامية الأطراف تمتدّ حدودها من خُرَاسَـان شـرقًا إلى نهر الفرات غربًا، ومن القوقاز شمالًا إلى بحر عُمان جنوبًا، واسـتطاع القضـاء على دولة "قـره قُيُونْلُو"، ونقـل عاصمتها من "ديـار بكر" إلـى "تبريز"، وبالتوازي مـع النجاحـات التي حقّقها والبلدان التي فرض سـيطرته عليها، اعتبر "أُوزُونْ حسـن" نفسه أعظـمَ حاكـم فـي المنطقـة، وكان يشـعر بالضيق والحقـد إزاء النجاحات التي يحققها العثمانيّون، وكان يقول:

> "إن قادة هذه الديار رأوا شجاعتي وانتقامي، وإن سنحت لـي الفرصـة فسـأظهر جرأتي وشـجاعتي أمام السـلطان العثماني كذلك".

حتى إنه لم يبارك للسلطان الفاتح على نجاحه في فتح القسطنطينية التي كانت تعتبر مركزًا للنصرانيّة في الشرق، وهو الحدث الذي أسعدَ العالم الإسلاميّ بأسره، ولم يتورّع عن إعلان استيائه من هذا الحدث في تلك السنوات.

ولقد تطرّق كتاب "**دياربكريه**"(١٦) المصدر الأوحد لتاريخ دولة "آقْ قُيونْلُو" إلى فتح القسطنطينية دون الدخول في التفاصيل.

كما وضع "أُوزُونْ حسن" أمراء "قَرَمَان" و"إسفنديار" و"جرميان"- الذين سيُفرّطون لاحقًا في إماراتهم للفاتح- تحت حمايته، ونصّب نفسه مكان القائد "تيمور لنك"، وبدأ يتصرّف بصفته "القائد الأعظم لحكّام الأناضول"، وقد شعر "أُوزُونْ حسن" بالغيظ الشديد بعدما قضى العثمانيون على إمبراطورية طرابزون وأضافوا ضريبةً جمركيّةً ثانيةً على تجارة الحرير في "تُوقاطْ"، وهي التجارة التي كانت تشكّل مصدر غنى بالنسبة لدولته، ولقد سارع إلى تجهيز جيشه لعلمه بأن هذه العلاقات المتوتّرة بمرور الوقت ستفضي إلى نشوب حربٍ لا مفرّ منها، وأرسل وفدًا من رسله إلى البندقية عام (١٤٧١م) لعقد اتفاقيّة تحالفٍ مع حكامها، ووضع الطرفان خارطةَ طريقٍ اتّفقوا على السير من أجل تحقيق بنودها جاءت كالتالي:

يسيطر "أُوزُونْ حسن" على الأناضول، ويمنع السلطان العثمانيّ من تشييدِ قلاعٍ على الساحل، ليقبل بعدها -أي السلطان الفاتح- فتحَ سواحل البحر الأسود لسفن البندقية، ثم تجري إعادة شبه جزيرة "بيلوبونيز" وجزيرتي "ميدلّي" و"وابية" إلى البندقية.

(١٦) ألفه أبوبكر الطهراني (ت: ١٤٧٧م) باللغة الفارسية حول دولة "آق قيونلو".

بـدأ "أُوزُونْ حسـن" بالتحـرّك ضـدّ العثمانيّيـن بعدمـا علـم بخروج العثمانييـن في غزوةٍ صـوب أراضي "بني قَرَمَان"، فأرسـل عام (١٤٧٢م) جيشًا قوامه ثلاثون ألف جنديٍّ من قوات "بني إسفنديار" و"قَرَمَان" وقبيلة "آقْ قُيُونْلُو" إلى وسط الأناضول، وعندما وصلت هذه الوحدات العسكريّةُ حدود الدولة العثمانية، بعثت رسلًا إلى حاكم إمارة أماسيا "بايزيد" وأمير أمـراء "تُوقـاطْ (*Tokat*)" "حمزة باشـا" ليخبروهما بأن الجيـشَ متوجّهٌ إلى مـدن "ذو القادرلـي"، ثم بادروا إلى خداعهما وشـنّوا هجومًا مفاجِئًا على "توقاط"، وقاموا بنهب المدينة وسلبها بوحشيّةٍ كبيرةٍ، وقتلوا كلّ من وقف في طريقهم وقاومهم، ويصف لنا "خواجه سعد الدين أفندي" هذا الهجوم بقوله:

> ''لم يسلم أهل المدينة من بطشهم وظلمهم الشديدين، فهجموا على "توقاط"، ومزقوا عائلاتها الأصيلة شرّ ممزّق، وأغرقوا أهلها في بحر الفوضى، ولم يتورّعوا عن حرق منازل المدينة حتى صار أهلهـا هائمين على وجوههم بنار القهر التي حرّقوهم بها، لدرجة أنهم أضحوا يتمنّون النوم على الحجارة والتراب بدلًا من الأسرّة والوسـائد، واحترقت الكتب والوثائق التي أضرموا النار فيها مثل قلـوب المعذبّين بنار الفـراق، كما أحرقوا المسـاجد والمدارس، ولم يبقَ أدنى أثرٍ من العديد من المحاريب والمنابر''.

شعر السلطان محمد الفاتح بالقلق إزاءَ تقدّم قوّات قبيلة "آقْ قُيُونْلُو" حتـى مدينة "آقْ شَـهِيرْ"، فأصـدر أوامر لابنه الأمير مصطفـى وأمير أمراء الأناضـول "قُوجَا داود أُوغْلُـو" أن يأخذوا حذرهم لمواجهة هذه القوّات، وبـادر الجيـش العثمانـيّ إلى محاصـرة جيـش "آقْ قُيُونْلُو" بقيـادة "ميرزا

يوسف" بالقرب من بحيرة "بَيْ شَهِيرْ (*Beyşehir*)"، واستطاع انتزاع النصر من قوات العدوّ في معركة "قِيرْ إِلِي (*Kıreli*)":

> ''وهام على وجهه جيش "آقْ قُيونْلُو" ولم يعرف إلى أين يذهب من شدّة المعركة، وأصيب عددٌ كبيرٌ من أفراده بسهام العثمانيّين، فيما لقي الباقون حتفهم بضربات السيوف، وسقط في الأسر عددٌ منهم لا يعدّ ولا يُحصى''.

وكان القائد العام "ميرزا يوسف" بين الأسرى، وبعد أن روى "خواجه سعد الدين أفندي" تفاصيل المعركة، أسدى بعض النصائح لخصوم العثمانيين قائلًا:

> ''من يتجرّأ ويرفع السيف أمام الدولة العثمانيّة المعظّمة فلينتظر البلاء الذي سيحل به، وإذا كنت ترغب في أن تُمنح إمارةً لتديرها أيّها الذكيّ، فاستظلّ بظلّ آل عثمان، وليصفُ قلبك نحوهم، ولا ترفع السيف ضدّهم يومًا، فالله أراد للعثمانيّين العظمةَ في الأرض، وقوّى شوكتهم للجهاد في سبيل دينه، وإذا رغبتَ في الحصول على الاحترام والطمأنينة في الحياة، فادع بالسعادة والسرور لآل عثمان''.

أرسلت القيادة العثمانية جيشًا من المغاوير قوامه عشرةُ آلاف جنديّ بقيادة "ميخائيل أوغلو علي بك" وشقيقه "إسكندر بك" من الروملي إلى "سيواس" في شهور الشتاء، فقطع هذا الجيش طريق "أُوزُونْ حسن" الذي كان يأمل في الاتّحاد بالأسطول الصليبيّ المنتظَر عند سواحل البحر المتوسط، وقد قضى السلطان محمد الفاتح فصلَ الشتاء بأكمله في إسطنبول يستعدُّ لمعركةٍ كبيرةٍ لرغبته في محاربة جيوش "آقْ قُيونْلُو"

وحلفائهم وتحقيق نصرٍ مؤزّرٍ عليهم، وفي هذه الأثناء وصل خطابٌ من قيادة "آقْ قُيُونْلُو" يطالب الدولة العثمانيّة بإخلاء مدينتي "كَابَادُوكْيَا" و"طِرَابْزُونْ" في الحال، وعقد كاتب ذلك الخطاب مقارنة بين "تيمور لنك" و"أُوزُونْ حسن"، وأكّد أن هذا الأخير يتفوّق على "تيمور لنك" كثيرًا، وحاول الخطاب التأثير بالسلب على الروح المعنويّة للعثمانيّين بعدما أشار إلى "معركة أنقره" التي وقعت عام (١٤٠٢م) وهزم فيها "تِيمُورْ لَنْك" السلطانَ العثماني "بايزيد الأول"، كما هو الحال بالنسبة لأغلبية الحكّام الذين هاجموا الدولة العثمانية من جهة الشرق.

وقد أمر السلطان محمد الفاتح بكتابة خطابٍ للردّ على "أُوزُونْ حسن"، وهدّده في هذا الخطاب ودعاه إلى معركةٍ ميدانيّةٍ حاسمةٍ، وجاء في خطابه ما يلي:

> "إن الله ﷻ هو فقط صاحب القوّة والقدرة، وإنك نجوت من بين مخالب غضبي فقط برجاء والدتك، وعفونا عنك بعدما اعتبرنا حالك قد انصلح واهتديت إلى سبيل الرشاد، بيد أنه من المحرّم أن يظهر ظالم مثلك في عهدي ويدّعي حقه في السلطنة، لقد أفضت سماحتنا وتعاطفنا معك إلى انتصارك بالقوّة على عددٍ من الأمراء أمثالك، والفخر والعظمة التي أظهرتها في أراضي دولتك، وحتى تمتّعك بالقوّة والقدرة التي أنت عليها الآن، وبالرغم من ذلك فإنّك تكبّرت ونسيت أصلك، وأرسلت جنودك إلى مدينتَي "توقاط" و"قَرَمَان" اللتين تعيشان تحت إدارتي العادلة، وظلمتَ أهلها وأذقتَهم شتّى صنوف العذاب، ولهذا فلقد قررنا الخروج في غزوةٍ ربيع هذا العام من أجل معاقبتك، ولا نفكّرُ بتاتًا في

الصفح عنك مرّةً أخرى، فلا تتعب نفسك بدون جدوى، وسيكون السهم رسولُنا والسيفُ لغتُنا معك من الآن فصاعدًا، فهل ظننت أن السلطنة هي حرقُ الولايات؟! وإننا سنغرس سيفنا في صدرك لأنك اعتديت على أراضينا بدون خشيةٍ أو تردّدٍ.

وإن كنت شجاعًا فتعال إلى ميدان القتال، ولا تهرب كالجبناء، واستعدّ للمعركة، ولا تقُل أننا لم نخبرك بها، ذلك لأن وجودك على وجه الأرض صار خطرًا، ولم يعد لديك عذرٌ أو حجّةٌ تقدّمها للعفوِ عنك".

تحرّك الجيش العثماني من إسطنبول في شهر أبريل/نيسان عام (١٤٧٣م)، وأُسندت مهمّة الدفاع عن أراضي الروملي إلى الأمير "جَمْ (*Cem*)" الذي عُيّن في منصب قائم مقام السلطنة، وأُرسل إلى "أَدِرْنَه"، وكان قوام الجيش يناهز مائة ألف جندي بعدما انضمّ حاكم إمارة "قَرَمَان" الأمير مصطفى وحاكم إمارة "أماسيا" "الأمير بَايَزِيدْ" بقوّاتهما إلى الجيش، وأما مغاوير الروملي فقد كانوا قد ساروا في الطرق المجاورة لمدينة "سيواس" منذ فصل الشتاء.

وعندما مرّت القوّات العثمانيّة من "سيواس" ووصلت مدينة "شبين قارا حصار"، قال الصدر الأعظم "محمود باشا" إلى السلطان:

"يا سيدي! ما رأيك في أن نستولي على مدينة "قارا حصار" قبل أن يأتي العدوّ ونشتبك معه؟".

فرفض السلطان الفاتح هذا الاقتراح بقوله:

"يا محمود! ماذا سأفعل بهذه المدينة، فأنا جئت لمواجهة العدوّ، ائتوني به!"

وبهذا يكون السلطان قد ركّز اهتمام الجيش على الهدف الأساسي، وأظهر تصميمَه على مواجهة عدوّه وعدم السماح لفقدان الوقت والطاقة في أمورٍ فرعيّةٍ.

صادف الجيش العثماني قوّات "أُوزُونْ حسن" للمرّة الأولى عند وادي نهر الفرات في شهر أغسطس/آب عام (١٤٧٣م)، ويُروى أنّ "أُوزُونْ حسن" عندما لمح الجيش العثمانيَّ المتقدِّمَ بانتظامٍ والمجهّز بالأسلحة الناريّة من بعيدٍ قال:

''ويحك يا ابن عثمان! يا له من حشدٍ كبيرٍ؟!''

وتقدّم الجيشان بمحاذاةِ ضِفاف نهر الفرات، وحاول كلّ طرف فهم قدرات الطرف الآخر وتقديرَ عدد قوّاته، وفي وقتٍ حاول فيه "أُوزُونْ حسن" سحب قوّاته إلى الداخل والتقهقر والاختفاء، بادر أمير أمراء الروملي "خاص مراد باشا" -الذي كان يتحرّك على رأس القوّات الأماميّة للجيش العثماني- بعبورِ مياه النهر إلى الجهة المقابلة، بدون علم الصدر الأعظم "محمود باشا"، وبينما كان يتقدّم بقوّاته تعرّض لهجومٍ مباغتٍ من قوّات العدوّ، ووقعت معركةٌ استمرّت ثلاث ساعات بين هذه القوات العثمانيّة التي كان يبلغ عددُها خمسةَ عشر ألف مقاتل من جهة، وجيش "أُوزُونْ حسن" الذي كان قوامه ستين ألف جنديّ من جهةٍ أخرى، وقد هُزم جيش الروملي في هذه المعركة، وبلغت خسائره نحو عشرة آلاف جنديّ، ووقع عدد من الأسرى من رجال الدولة العثمانية الذين كان من بينهم فاتح شبه جزيرة بيلوبونيز "طُورْخَانْ عمر بَكْ"، و"آيْدِنْ أُوغْلُو حَاجِي بَكْ (*Aydınoğlu Hacı Bey*)"، وأمين خزانة الروملي "أحمد جَلَبِي"،

وعـرض "أُوغُورْلُـو (*Uğurlu*) محمـد بك" بن "أُوزُونْ حسـن" الذي هزم جيـش "مراد باشـا" العثمانيّ، على والـده الهجوم على الجيـش العثماني في الحال، إلا أنه لـم يستطـع إقناعه بهذه الفكرة، وبحلول المساء اختفت قوات "آقْ قُيُونْلُو" وتوارت عن الأنظار.

ولقـد أفضت هـذه الهزيمة إلى ظهور علامـات الانهزام على الجيش العثماني، كما سـيطرت حالة من القلق الشـديد على إسـطنبول و"أَدِرْنَه"، لكن السلطان محمد الفاتح كان قائدًا محنّكًا عرف كيفَ يرفـع من عزيمة جنوده بعد هذه الخسارة بفضل بعض التدابير التي اتّخذها في هذا الصدد، بحيث واصل التقدّم بجيشه للبحث عن "أُوزُونْ حسن" للنيل منه.

وينقـل القائد العثماني "طُورْخَانْ عمر بَكْ" الذي سـقط أسـيرًا في يد جيـش "آقْ قُيُونْلُو"، أن "أُوزُونْ حسـن" أقام ليـالٍ ترفيهية لجنوده كمكافأةٍ لهم على هذا النصر، فقال "أوزن حسن" إلى "عمر بك" مستهزأ به:

> ''عمـر بـك! لقد أوقعتُ ابـن عثمان في الفـخّ أليس كذلك؟ ذلـك لأن قوّات الروملـي كانت هي مصدر فخر الجيش العثماني والقـوّة التـي كان يعتمد عليهـا عند الضرورة، لقـد قضيت عليهم ومحـوت أسـماءهم مـن الوجـود، ومـن الآن فصاعدًا فـلا بدّ أن أستولي على عرش الروم وأن يكون قصر القيصر نُزُلي''.

فردّ عليه "عمر بك" قائلًا:

> ''يا سيدي! إن نقصت قطرةٌ من بحر الجيوش العثمانيّة، فهل ينقـص هذا شـيئًا من زبد ذلك البحر؟ وما هـو الضررُ الذي يلحق بسـلطنة السـماء إذا اختفى نجمٌ كان يتلألأ في قبّتها؟ وإن سلطاننا يمتلك مائةَ ألف عبدٍ مثلي، فكيف يتسلّل الحزن والأسى إلى قلبه

جرّاء أسْـر بعضٍ من عبيـده ورجاله؟ وكيف يتضرّر شـرفُه وهيبتُه بهذا؟ فالنصيب هبةٌ من الله، فهو قد ورث الدولة عن آبائه وأجداده كابرًا عن كابر، ومن يُخلِص له الخدمة ينجو من آلام الحياة".

وحينها اغتم "أُوزُونْ حسن" واعترت وجهَه حالةٌ من الغضب وقال:

"انظروا كيف لهذا الشـخص أن يقول هذا الكلام وهو أسـير في أيدينا، فهو يهذي بكلامٍ أجوف لا قيمةَ له ، يجب أن نقتله في الحال".

فسارع "عمر بك" لتدارُكِ الموقف بقوله:

"أرجـو ألا تكـون كلماتـي الوقحـة قـد ضايقتك يـا حضرة السـلطان، ذلك لأنّ لبني عثمان عليّ أفضالٌ كثيرةٌ، ونسـيانُ الحقِّ يتساوى مـع العصيان والتمرّد، وليس من المناسب أن أتفوّه ببنت شفةٍ في حقّ وليّ نعمتي، فأنا صديق لمن يمدحه، ولا يمكنني أن أتخلّى عن حبّه، لكنّ الحقيقة أن جنودَ السلطان الأكفاء قد انهزموا وقتلـوا فـي هـذه المعركـة، ومن بقـي منهم فقد أصيـب بالخوف والهلــع ومــن المؤكد أن قلب السـلطان تمزّق وفقـدَ القدرة على المقاومـة من شـدّةِ الضربـة التي تلقّاها، وهــم لا يتحمّلون هجمةً جديدةً من هجماتكم الشرسة".

فسُرّ "أُوزُونْ حسن" لسماعه هذا الكلام وقال:

"يا سـادة! إن عمر بك يقول الحقّ، فنسيان فضل وليّ النعمة يُعتبـر خيانـةً لا يقرّهـا الديـن بأيّ حـالٍ من الأحـوال، فهو رجل محنّكٌ وذكيّ".

لقـد توتـرت أعصاب أفـراد الجيش العثماني بعدما سـاروا سـتّة أيّام متواصِلـةٍ في مشـقّةٍ بالغـةٍ للبحث عن جيـش "آقْ قُيُونْلُـو" دون جدوى،

كما أخذوا حذرهم واحتياطاتهم خشية التعرُّض لهجومٍ مباغتٍ من قوّات العدوّ، وبادرت القوّات العثمانية يوم الأربعاء الموافق للحادي عشر من أغسطس/آب (١٤٧٣م) للراحة في وادي "تَرْجَانْ (*Tercan*)" الوعر والمحاط بالجبال من كل جانب، وحينها شاهد الجيش العثماني أن وحدات جيش "أُوزُونْ حسن" وقد اتّخذت موضع القتال عند مرتفعات "أُوتْلُوكْبَلِي"، وبالرغم من عدم استعدادِ جيشِهِ للحرب بتمركزِهِ في مكانٍ سيّءٍ إلا أنّ السلطان الفاتحَ قبِل التحدي ودخلَ المعركةَ على الفور، ذلك لأن الجيش كان قد نفدت مؤنته إلا من القليل من الزاد الذي يكفيه لثمانية أيامٍ فقط.

فأمر السلطان أميرَ أمراء الأناضول "قُوجَا (*Koca*) داود باشا" على الفور بالتحرّك صوبَ المرتفعات التي يتمركز بها جيش "أُوزُونْ حسن"، ولم يسمح لقوّات العدوّ بالنزول منها للسيطرة على الطرق المؤدّيّة إلى الوادي، ودخل القائد العثماني بقواته البالغ قوامها ثلاثين ألف جندي في مواجهةٍ مع قوّات "آقْ قُيُونْلُو" بقيادة "جَافُورْ إسحاق"، واستطاع الجنودُ العثمانيّون مباغتةَ عدوِّهم بهجماتٍ سريعةٍ حتى وصلوا المرتفعات، ما أجبرَ قوّات العدوّ على التقهقر، واستطاع "داود باشا" صدّ هجومٍ قامت به قوات "كُورْ (*Kör*) زَيْنَلْ" عند المنطقة المستوية من المرتفعات.

وفي تلك الأثناء، تنفّس الجيش العثماني الصعداءَ نتيجة عدم تحرّك وحدات جيش قبيلة "آقْ قُيُونْلُو" الأساسيّة، وأعدّ الجيشُ العثمانيّ عدّته داخل الوادي للهجوم عليها، ثم تقدّم بجناحيه صوب المرتفعات.

**نَقش يصف محمد الفاتح من وجه نظر الغرب**

وكان الأمير مصطفى يقود الجناح الأيسر، وما إن وصل المنطقة المستويةَ من المرتفعات حتى شنّ هجومًا على "زَيْنَلْ" نجل "أُوزُونْ حسن"، وهو ما دفع الأخير لتسييرِ وحدات جيشه من المرتفعات حتى صارت كسيل العَرِمِ، وبدأ الجيشان في الاقتتال بشكلٍ عنيفٍ، حيث كانا يلتحمان وينفصلان عن بعضهما كأمواج البحر التي أغرقت فرعون وجنوده.

ومن ناحيةٍ أخرى هاجم "الأمير بَايَزِيدْ" -قائدُ الميمنةِ في الجيش العثماني- الجناحَ الأيسر لقوّات "أُوزُونْ حسن"، وأما "أوغورلو محمد

بك" -نجل "أُوزُونْ حسن" الآخر- فكان ينتظر برفقةِ الصفوة من جنوده دخولَ القوّات المركزيّة العثمانيّة بقيادة السلطان الفاتح أرضَ المعركة؛ إذ رغب في محاصرة القوّات الخاصّة المنوط بها حماية السلطان من الجنب والخلف وقطع طريق الانسحاب عليها، ومن ثمّ القضاء عليها تمامًا.

ووقع قتالٌ عنيفٌ بين قوّات الأمير مصطفى والقائد "زَيْنَلْ"، وخلال المعركة سقط هذا الأخير من على حصانه وقُتِلَ، ومُثِّل بالرأس المقطوع في ميدان المعركة، ونجح "الأمير بَايَزِيدْ" من جانبه في تفرقةِ وحدات الجناح الأيسر من قوّات العدوّ التي كان يقودها "محمد بَاقِر" من خلال البنادق ووابلٍ من القذائف المدفعية، وأَسَرَ "محمد باقر"، واستولى على راية الجيش.

ثم توجّه "الأمير بَايَزِيدْ" نحو قوات "أوغورلو محمد" الذي كان يترقّب دخول القوّات المركزيّة العثمانيّة أرض المعركة، ما اضطرّ هذا الأخير للانسحاب من موقع تمركزِه.

وتقدمت المغاوير التي يقودها "ميخائيل أُوغْلُو علي بك" من المنطقة التي يتمركز بها الجناح الأيمن للجيش العثماني، وقامت فرق المغاوير التي يقودها "إسكندر بك" بعملٍ مماثلٍ أيضًا من جهة الجناح الأيسر، وحاصروا وحدات "آقْ قُيُونْلُو" ولقّنوها درسًا قاسيًا في فنون القتال.

وفي الوقت الذي تفرّقت فيه قوّات "أُوزُونْ حسن" على كافّة جبهات المعركة، لم تكن فرق الإنكشارية -التي تُعتبر القوّة الضاربة للجيش العثماني- قد دخلت المعركة بعد.

وأدرك "أُوزُونْ حسـن" حينئـذٍ أنه فقد الأمل فـي الفوز بالمعركة، ففرّ هاربًـا لمـا وصله نبأُ مقتل ابنه "زَيْنَلْ"، وبينما هو يلوذ بالفرار لإنقاذِ نفسـه من أيدي العثمانيين، وقال لـ"قَرَمَان أوغلو بير أحمد بك":

''يـا ابن قَرَمَـان! دمّر الله عليك ملكك وشـتّت شـملك، لقد تسببتَ في حرماني من فلذةِ كبدي وجنودي الشجعان، وأصبحتُ بسببك بائسًا وخسرت كلّ شيءٍ، ما شأني وشأن العثمانيّين؟!''

وسـارع "أُوزُونْ حسـن" للتحـرّك إلـى مقـرّ قيادة جيشـه الذي وصله خـلال يـوم واحدٍ في الوقت الذي يتطلّب فيه السـير في هذا الطريق ثلاثة أيام، واصطحب عائلته التي كانت تقيم هناك وانطلق صوب عاصمة دولته في "تبريز".

لقـد اقترح معظم رجال الدولة العثمانية على السـلطان الفاتح التقدّم حتـى "تبريـز" والقضاء على دولة "آقْ قُيُونْلُـو" حتى لا يتجرّأ حكّامُها بعد ذلك على مهاجمة الأراضي العثمانية، فرفض السلطان هذا العرض قائلًا:

''إن القضـاء علـى هذا الجاني الـذي يُدعى "أُوزُونْ حسـن" ليـس ضمن أهداف سـلطان الدولة العثمانية، فقـد نال عقابَه، وإن تدميـر عائلته ليس من الرجولة والمروءة في شـيء، فكفاه أن قُتل ابنه وكُوي قلبه بفراقه، وليس لنا حاجة في هدم دولته بالدماء التي أسالها سيفنا البتّار، وإن تدمير سلالات السلاطين المسلمين ليس عـادةً حسـنة، كما أنه لو كان الأمر بيدي لمـا كنتُ فعلتُ أكثر من ذلك من أجل سـلطنتي، لكن في الوقت نفسه هو الذي تسبب في هـذه العاقبـة، فهدفنـا كان تأديبه فقط، وأما ما حـدث فقد زاد عن الحد، ومطاردة هذا الشخص بغرض الانتقام يعني تخريب العديد من القرى وتدميرها، وفي نهاية المطاف سيدعو علينا المتضرّرون

مـن هذه الهجمـات من الأغنيـاء والفقراء على حدٍّ سـواء، وأنت تعـرف أن دعـوة المظلوم ليس بينها وبيـن الله حجاب، وليس من شـأنِ شـخصٍ يفكّـر في عاقبتـه أن تكون هذه الدعـوة من نصيبه، وستتسـبّبُ هـذه الوضعية في إصابتنـا بالبلاء والعناء، وسننشـغل بهـذه الأمور غيـر المباركة عن محاربة أعـداء الدين من النصارى وغزوِ بلادهم، وهو كذلك أمر لا يليق بمن يحمل همَّ الآخرة ولا يصبّ في مصلحتنا مطلقًا".

وقد تكشـف هذه العبارات التي سـردناها آنفا بشكلٍ واضحٍ الغايات الحقيقة للسلطان محمد الفاتح ودولته في ما يتعلّقُ بشؤون الغزو والفتح.

وافقـت القيادة العثمانية على طلب السـلام الذي عرضه رسـول "آقْ قُيُونْلُـو" أثنـاء تواجدهـا في "شَـبِينْ قَارَا حصار" شـريطةَ ألا تتجـرّأ دولته علـى الإغـارة على الأراضـي العثمانية بعد الآن، وفي العام التالي أرسـل "أُوزُونْ حسـن" الرسـول ذاته إلى إسـطنبول، وأبلـغ السلطان بأنه لن يُقدم علـى الاعتداء علـى الأراضي العثمانية أبدًا، مسـتخدمًا عبارات تدلّ على الانكسار والتبعيّة للعثمانيّين.

وقـد لعـب هـذا النصـر الـذي حقّقـه العثمانيـون دورًا محوريًّـا فـي إنقـاذ دولتهم مـن أزمةٍ كبيرةٍ بعدما سـيطرت عليها وضعيّـة حرِجةٌ للغاية بسـبب الهجمـات التـي تعرّضـوا لها من الشـرق والغرب، وربمـا كان له -أي هـذا النصـر- الفضل بعد الله ﷻ في الحيلولة دون تقسـيم أراضيهم، وخمدت نيران روح الحملات الصليبية التي أشعلها البابا في الغرب، كما فشـلت مخطّطاته الرامية لمحاصرة الدولة العثمانية من الشـرق، واستطاع العثمانيون بعد هذا النصر بسـطَ سـيطرتهم الكاملة على الأراضي الواقعة

غـرب نهـر الفرات، ومن ناحيـةٍ أخرى فقدَ الصليبيّـون، وبالأخصّ حكّام البندقيّة، بشكلٍ شبه نهائيّ الآمال التي عقدوها للنصر في الحرب الطويلة التي دخلوها ضدّ العثمانيين.

عقـد "بنو قَرَمَـان" تحالفًا مـع البندقيين عقـب معركـة "أُوتْلُوكْبَلِي"، وشـنّوا هجمـات على الأراضـي العثمانية، ما دفـع السـلطان للخروج في غزوةٍ لتأديبهم عام (١٤٧٤م)، وشـهدت هـذه الغزوة وفاة الأمير مصطفى الـذي كان يعانـي مـن مـرضِ كليتيه، ليدخل السـلطان محمـد الفاتح في دوّامةٍ من الاكتئاب حزنًا على موت ابنه، واستطاع القائد العثماني "جَدِيكْ (*Gedik*) أحمد باشـا" بسط السـيطرة الكاملة على منطقة وسط الأناضول، لتتّجه أنظار الدولة العثمانية بعدها نحو الجبهة الغربية من جديد.

# الحرب ضد البندقية من جديد

سعت جمهورية البندقية لاستغلال خروج الجيش العثمانيّ في غزوةٍ ضدَّ "بني قَرَمَان" وسط الأناضول، وبادر أسطولها للتحرُّكِ وضرب سواحل الروملي في صيف عام (١٤٦٩م)، ونهب جنودها مدينة "أَنَزْ (*Enez*)" التي تعتبر من أغنى المدن التجارية في المنطقة، واستعاد أسطول البندقية جزيرتَي "إِمْرُوزْ" و"لِيمْنِي"، واستولى على عددٍ من القِلاع في شبه جزيرة "بيلوبونيز"، فلم يتأخر السلطان الفاتح في الردّ على هذه الهجمات، وأرسل فِرَقًا من مغاويره إلى أوروبا في شهر يناير/ كانون الثاني عام (١٤٦٩م)، وقادَ حاكمُ سنجق "البُوسْنَة" "عيسى بك" هذا الهجوم الذي شارك به ألف جندي، واستطاع ليس فقط دخول أراضي البندقيّة، بل دخل أراضي ألمانيا والنمسا.

وكما ذكر "نيكولا يورجا" نقلًا عن الوثائق الإيطاليّة والنمساوية: "فإن هؤلاء المهاجمين الأتراك أجرأُ جنود العالم، وفدوا على المدينة وكأنهم نزلوا من السماء".

عمد السلطان محمد الفاتح إلى التحرّك في العام التالي، وتوجّه بقوّاته صوب جزيرة "وابية" التي تتمتّع بموقعٍ إستراتيجيٍّ متميّزٍ، وكانت تلك الجزيرة تقع على الطريق الذي تعبُر منه السفن التركية بين شبه جزيرة "بيلوبونيز" والأناضول، هذا إضافةً إلى أن الجزيرة كانت مأوى لسفن البندقيّة والقراصنة الذين يهاجمون السفن العثمانية.

في البداية حاصر الصدر الأعظم "محمود باشا" الجزيرة من البحر وتحت قيادته مائة سفينة "قادرغه" ومائتي سفينة قتال ونقل، وأما السلطان الفاتح فقد خرج على رأس جيش قوامه سبعون ألف جنديّ، ووصل إقليم "ثيساليا (*Teselya*)"، ثم عبر مضيق "وابية" بواسطة جسرٍ عملاقٍ، وحاصر قلعة الجزيرة، وخرج أسطول البندقيّة من بحر "إيجَه" لدعم الجزيرة، إلا أنه لم يستطع الاقتراب منها بسبب الحصار العثماني، ونجحَ الجيش العثماني في الاستيلاء على الجزيرة بعد سقوطِ قلعتها بهجومٍ عنيفٍ شنّته القوّات العثمانيّة يوم الحادي عشر من يوليو/تموز (١٤٧٠م).

صدر أمر لـ"جَدِيكْ أحمد باشا" بالخروج في حملةٍ عسكريّة ضدّ "بني قَرَمَان" عام (١٤٧١م)، وعرض السلطان على البندقية توقيع معاهدةِ سلامٍ لرغبته في منع شنّ حملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ على دولته من ناحية، ولعلمه بالتحالف القائم بين "آقْ قُيُونْلُو" والبندقية من ناحيةٍ أخرى، فأراد إفشالَ خططهم، وأعدّت القوّات التركيّة العدّة كذلك للدفاع عن الأراضي العثمانية ضدّ الجيوش المجرية، وكلفت الإدارة العثمانية فرقةً من مغاوير الروملي بمهاجمة أراضي إمبراطور النمسا -منافس المجر- بدلًا من الأراضي المجريّة، وعرضت على ملك المجر توقيع معاهدة سلامٍ ووفد مبعوثٌ مجريٌّ إلى الأراضي العثمانية، فحاول القادة العثمانيون مراوغته

انتظارًا لما ستُسفر عنه معركة "أُوتْلُوكْبَلِي"، وفي تلك الأثناء كان الأسطول الصليبيّ الذي ضرب سواحل البحر الأبيض المتوسط في صيف عام (١٤٧٢م) بقيادة البندقيّين، قد اتّخذ من سواحل "أنطاليا" المطلّة على البحر المتوسط قاعدةَ تمركُزٍ من أجل دعم بني قَرَمَان و"أُوزُونْ حسن" في الأناضول.

غير أن النصر الحاسم الذي حقّقه الجيش العثماني في معركة "أُوتْلُوكْبَلِي" صيف عام (١٤٧٣م) غيّر جميع التوازنات لصالح العثمانيّين، وبدأ التحالف الصليبيُّ يُصاب باليأسِ وتعترضه تصدّعاتٌ غائرةٌ تقطعُ أملَه بالفوز في هذا الصراع الشاق والطويل الذي استمرّ عشر سنوات، وبعد أن راوغت القيادة العثمانية مبعوثَ المجر طيلة عام كاملٍ على مدار هذه الغزوة، رفضت مطالبه بعد الانتصار في المعركةً، هذا إضافةً إلى أن المجر لم تستطع استغلالَ فرصةِ خروج العثمانيّين في هذه الغزوة لانشغالها بالحرب ضدّ مملكة بولندا في العام نفسه.

# منظمة "آقِنْجِي"

كان يطلق اسم "آقِنْجِي (*Akıncı*)"[١٧] على وحدات الخيّالة الخفيفة التي تحتشد في المناطق الحدودية لأراضي الدولة العثمانيّة مع القارّة الأوروبّيّة، حيث كانت مهمّة هذه الوحدات هي شنّ هجمات مباغتة على أراضي العدوّ من أجل استنزافه، ولم تكن هذه الوحدات تقومُ بهذه الهجمات المباغِتة فقط، بل في الوقت نفسه كانت تتولّى مهامًا مخابراتيّةً متعدّدةً مثل جمع معلومات حول وضعيّة العدوّ، والطرق التي يسلكها وتعداد قوّاته، وكانوا يلعبون دور القوّات الاستشكافيّة أثناء الحروب، فيخرجون إلى الأراضي التي يتمركز بها جيش العدوّ، ويفتحون الطريق أمام الجيش، ويُفشِلون الكمائن المحتمل نصبها للقوّات العثمانيّة.

وكان من بين مهامهم الأخرى على سبيل المثال حمايةُ محاصيلِ الحبوب المزروعة على طريق الجيش، وتأمين الأماكن التي يعبر منها الجيش مثل الجسور والمعابر وغيرها.

(١٧) "آقنجي (*Akıncı*)": الاسم الذي أطلق على القوّات الخفيفة من الخيّالة العثمانية الذين كانوا يتمركزون في العادة على المناطق القريبة من الحدود، حيث يقومون بالهجوم على أراضي العدوّ، فيحصلون منها على الأموال والأسرى من جهة، ويتحصّلون على معلوماتٍ مهمّةٍ عن العدوّ من جهةٍ أخرى، فيرسلونها مباشرةً إلى المركز. (صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ٢٢).

وكانت وحدات "آقِنْجِي" تسيرُ قبل الوحدات الأساسيّة للجيش بمسافة أربعة إلى خمسة أيام، وكانت الجيادُ التي يمتطونها تُختار من أقوى الجياد وأسرعِها لتحمِل قسوة المهام التي يخرجون فيها، وكانوا يصطحبون حصانَين أو ثلاثة أثناء الخروج في الغزوات ليتركوا من يتعب منها في أماكن استراحة الجيش، ومن ثم يحمّلون عليها الغنائم والأسرى التي رجعوا بهم من الحرب، وكان يقود كلّ عشرةٍ من هؤلاء قائدٌ برتبةِ "عريفٍ"، وكل مائة قائد برتبة "صُوبَاشِي"، وكل ألف قائد برتبة "رائد"، وكان القائد العام لفرق "آقِنْجِي" يُطلَق عليه لقب "قائد آقِنْجِي"، بحيث كانت رتبة هذا القائد توازي رتبةَ قائد السنجق، وكانوا يملكون صلاحيّاتٍ استثنائيةً ويتلقّون الأوامر من السلطان بشكلٍ مباشرٍ.

لم تكن وحدات "آقِنْجِي" تُدار بشكلٍ مركزيّ، بل تشكّلت قيادات لها في المناطق الحدودية للدولة، فكان كلّ قائد منطقةٍ منفصلٌ عن بقيّة المناطق، وكانوا يسمون بأسماء ألقاب قادتهم، فتشكلت فرق "آقِنْجِي مَالْكُوج أُوغْلُو (*Malkoçoğlu*)" في "سيليسترا (*Silistre*)"، وفرق "آقِنْجِي طُورْخَانْلِي (*Turhanlı*)" في شبه جزيرة "بيلوبونيز"، وفرق "آقِنْجِي مِيخَالْ أُوغْلُو (*Mihaloğlu*)" في "سيميندير ا".

كانت أسماء "آقِنْجِي" وأوصافُهم والأراضي التي يمتلكونها تُقيّد في دفاتر، وتُحفظ نسخة من هذه الدفاتر في دائرة الدفاتر في العاصمة، ونسخةٌ أخرى لدى السجلات القضائيّة للولايات أو السناجق التي يُقيمون بها، وذلك للحيلولة دون تورُّطهم في أيّةِ محاولةِ فسادٍ ماليّ.

وكان عندما يسقط منهم الشهداء والمصابين في المعارك، كان يُستبدل بهم شبّان أقوياء وأشداء مهرة في امتطاء الجياد، وينصّ قانون اختيار

"آقِنْجِي" في الدولة العثمانية على منح الأولويّة لمن كان أبوه "آقِنْجِي"، وأما من لا يأتي بضامنٍ أو كفيلٍ له فلا يُقيّد في سجلات "آقِنْجِي".

وبالرغم من عدم وجود معلوماتٍ مؤكّدةٍ حول عدد "آقِنْجِي" في الدولة العثمانيّة، فإن بعض المصادر التاريخية تكاد تجزم بأن عددهم في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي كان يناهز أربعين ألف شخص، ويُشير أحد تقارير الغياب المدونة عام (١٥٥٩م) إلى أن قوام فرقة "آقِنْجِي طُورْخَانْلِي" كان حوالي سبعة آلاف جندي.

وكانوا يستخدمون عادةً الأنواع الخفيفة من الأسلحة التي لا تعوق حركتهم مثل السيف والدرع والرمح والجُرْز (المقمع)، وكانوا لا يرتدون الدروع على أجسادهم عادةً، وكان أقدم "آقِنْجِي" أكثرهم عبورًا إلى الجهة المقابلة من نهر الدانوب، ومن أشهر مقاتلي"آقِنْجِي" في عهد السلطان الفاتح "مِيخَائِيلْ أُوغْلُو علي بك" الذي عبر نهر الدانوب ثلاثمائة وثلاثين مرّةً طيلةَ حياته.

ويمكننا تلخيصُ التقنيّة التي كان يتبعها هؤلاء الشجعان في هجماتهم كالتالي:

ينقسم جيش "آقِنْجِي" إلى أجنحةٍ كبيرةٍ في المنطقة المراد شنّ الهجوم عليها، وكان ينقسم بعد ذلك إلى أفواجٍ أصغر حجمًا كلّما تقدّمت العمليات العسكريّة، على أن تُعيّن المناطق التي يهاجمها كل فوجٍ من هذه الأفواج في وقتٍ سابق، وتتّحد هذه الأفواج مجدّدًا في طريق العودة، غير أن نقطة التجمّع هذه المرّة تكون مختلفةً عن النقطة التي تفرّقوا عندها، ويتوحّد الجيش من جديد مع عودة جميع أجنحته واتّحادها مع بعضها

البعض، وكانت هذه التحرّكات تُحدث دهشةً وخوفًا كبيرَين بين صفوف العدوّ، وكانت تنتشر بينهم مئات الإشاعات حول أماكن تواجد قوّات المغاوير العثمانية والمناطق التي سيهاجمونها.

وكان المبدأ الأساسي في الهجمات التي تشنّها قوّات "آقنجي" العثمانية هو عدم مواجهة جيش العدوّ والدخول في معركة ميدانيّة ضدّ قواته إلا إذا أُجبروا على ذلك؛ إذ لم يكن "آقنجي" يقاتلون في المعارك الأساسيّة، بل إن الجيش العثماني النظاميّ كان هو المنوط به هذه المهمّة، لكن المعلومات الاستخباراتيّة كانت أهمّ مقوّمات هذه المعركة.

ويروي المؤرخ الألماني "فرانز بابنجر" أن الأتراك العثمانيين كانوا على علم كاملٍ بكافّة المخطّطات التي كان يناقشها قادةُ ألمانيا والمجر في مؤتمراتهم، بحيث كانوا يستعينون بهذه المعلومات الاستخباراتيّة في تعديل مخطّطاتهم الهجوميّة أو الدفاعيّة.

فعلى سبيل المثال فقد نقل جاسوس تركيّ يمتطي حصانًا صغيرًا ومعطفًا متخفيًا في زيّ "عزيز فالانتين"، معلومات مخابراتيّةً إلى الإدارة العثمانيّة، ولم تستطع السلطات الألمانيّة إلقاء القبض عليه بعد أن تنقّل من مدينة إلى مدينة، وذلك بالرغم من تعميم الجهات الأمنية في الإمبراطورية الألمانية أوصافَه واتّخاذها التدابير اللازمة للقبض عليه في ولاية "بافاريا".

وكان معظم الجواسيس العثمانيّين من طبقة "آقنجي"، وكانوا يتحدّثون عددًا من اللغات الأجنبيّة بطلاقةٍ، وكان جهاز المخابرات العثمانية يضمّ عملاء من السكّان المحلّيين للدول الأوروبّية.

* * *

بـادرت جمهوريـة البندقية إلى عقـد تحالفٍ مـع "بنـي قَرَمَان" وقبيلة "آقْ قُيُونْلُو" من أجل الضغط على الدولة العثمانية من الجانب الآسـيويّ، فسـارع السـلطان محمـد الفاتـح للـردّ على هـذا التحالف بالتعـاون مـع جمهورية فلورنسـا التي تُعتبر منافسـةً للبندقية، ولقد قامت فرق "آقنجي" العثمانيـة بمهاجمـة البندقيـة كلما سـنحت الفرصـة بذلك وشـلّوا الحياة الاقتصاديّـة فيهـا، وبعد أن نجح الأتراك في القضاء على الطرف الشـرقي من هذا الحلف بالانتصار في معركة "أُوتْلُوكْبَلِي" عام (١٤٧٣م)، استولوا على قلعتي "كرويا" و"لِيش" في ألبانيا، وقاد السـلطان الفاتـح جيشه بنفسه لحصـار قلعة مدينة "أشـقودرة" التي تُعدُّ أهمّ قواعـد البندقية في المنطقة، كما شنّ العثمانيّون هجماتٍ مباغتةً عبر ألبانيا على أراضي البندقيّة، ودول المجر والنمسا وبولندا الواقعة شمال نهر الدانوب، ولقد أثّرت الهجمات القويّـة للعثمانيّيـن فـي الأوضـاع الاقتصاديـة للبندقيـة وحلفائهـا وهزّت معنويّاتهم من الداخل.

خرج القائد العثماني "ميخائيل أُوغْلُو علي بَكْ" في شتاء عام (١٤٧٤م) على رأس حملةٍ عسـكريّةٍ مباغتةٍ في إطار هذه الإسـتراتيجيّة التي اتّبعتها الدولـة العثمانية إبّان تلك الحقبة، وتوجّه على رأس قوّةٍ عسـكريّةٍ قوامها ثمانيـة عشـر ألـف مقاتل "آقنجي" لشـنّ هجـومٍ كبيرٍ علـى المجر، حيث اسـتطاع السـيطرة على مدينة "وارادين (*Varadin*)"، وكان هذا الهجوم هو أكبر حملةٍ عسكريةٍ تقوم بها القوّات العثمانية على ولاية "كارنيول"، وكان الحكّام الكروات قد طلبوا الدعم من العثمانيّين لمواجهة أسرة "فرانجيبان"، فخـرج المغاويـر الأتراك فـي غزوةٍ من كرواتيـا ودخلـوا "كارنيول"، كما وصلوا حتى مشارف "ليوبليانا" عاصمة "سلوفينيا"، وتقدّم جناحٌ عسكريٌّ

آخـر من "آقنجي" نحـو مدينة "كلاجنفورت"، واسـتطاعت هـذه القوّات تفريقَ فرقةٍ من فرسـانِ العدوّ، وأسـرت ألفي شخصٍ بينهم عددٌ من نبلاء المدينة، ثم عبرت هذه المجموعة من "كيرنتن" إلى "إستيريا" حتى وصلت إلى مشارف مدينة "جور (*Gor*)".

وإذا تخيّلنا أن العائدين من هذه الغزوة رجعوا وبرفقتهم تسـعين ألف رأس ماشـية وسـتين ألف أسـير، نُدرك جيّدًا كيف أنهم أفقدوا العدوّ قواه الاقتصاديّة والعسكريّة على نطاقٍ واسـعٍ.

دخلـت وحدةٌ أخرى من "آقنجي" العثمانيّيـن الأراضي البولندية عام (١٤٧٤م)، واسـتولت علـى مدينتي "بودوليـا" و"جاليتيشـيا"، وقاد حاكم سـنجق سـيميندير "مَالْكُـوجْ أُوغْلُـو بَالِـي بَـكْ (*Malkoçoğlu Bali Bey*)" العملية العسكرية التي شُنّت على دولة "أردل (*Erdel*)" في العام ذاته؛ وعبر هذا القائد نهر الدانوب، ونشر الخوف والرعب بين السكّان المحلّيّين في المنطقة الممتدّة حتى مدينة "فارادين".

وقـد خـرج "آقنجي" الأتراك في غزوة جديدة إلى "إسـتينيا (*İstinya*)" و"كيرنتن (*Karintia*)" عام (١٤٧٥م)، واستطاع القائد "أحمد باشا" دحض العـدو في معركـة "ران (*Rann*)"، كما تمكّنت وحـدة "آقنجي" أخرى من دخول مدينة "كارنيول (*Karniyol*)".

شنّ حاكم "البُوسْنَة" "إسكندر باشا" في خريف عام (١٤٧٧م) هجومًا كبيـرًا علـى أراضي إيطاليـا الشـمالية، وعبر نهـرَي "إيسونسـو (*İsonso*)" و"تاجليومينتـو (*Tagliomento*)"، وقَلَـبَ وادي البندقيـة الغنـيّ رأسًـا على

عقب، وفي هذه الأثناء سقى "آقنجي" جيادهم من مياه نهر "بيافي (*Piave*)"، ثم عادوا عبر إقليم "فريولي (*Friul*)".

شارك في الهجوم على البندقية عبر إقليم "فريولي" عام (١٤٧٨م) حوالي خمسةَ عشر ألف مقاتل، وضمّ هذا الجيش الذي قاده "إسكندر باشا" في الوقت نفسه كلًّا من "ميخائيل أُوغْلُو علي بك" و" مَالْكُوجْ أوغلو بالي بك"، وقد استولت القوّات العثمانية على مدينة "جوريتسيا (*Gorizia*)"، ولما وصلت مدينة "إيسونزا" كان عدد "آقنجي" قد بلغ ثلاثين ألفًا، وفي الوقت الذي عبرت فيه قوّةٌ من "آقنجي" الأتراك مكونة من خمسة عشر ألف جنديّ مدينة "إيسونزا" التي يُطلقون عليها اسم "المياه البيضاء"، كانت قوّةٌ أخرى قوامها خمسة عشر ألف "آقنجي" تُهاجم الطرف المقابل من النهر، وكانت هذه المنطقة وعرةً للغاية لدرجة حتى إن السير فيها يصعُبُ على البشر، فاضطرّ "آقنجي" لعبورها وهم يقفزون بجيادهم من بين الصخور والمنحدرات.

ولقد أرعبت هذه التحرّكات العسكريّة للقوّات العثمانيّة البندقيّة، وأفضت إلى استسلام حكّام البندقية بعدما نفدت مواردهم، ويقول "سيلو مافي (*Celso Majfei*)" في خطابٍ أرسله إلى دوق البندقية "أندريا فندرامين (*Andrea Vendramin*)" ما يلي:

> "إن العدوّ على أبوابنا، والبلطة قد وضعت نصب عينها اقتلاع الشجرة من جذورها، وإن لم يساعدنا الله، فإن هذه البلطة ستستأصل شأفة شجرتنا".

ويمكننا التخمين عبر هذه العبارات القصيرة كيف أن البندقية خارت قواها مع قرب انتهاء هذه الحرب الكبرى.

ولقد جرّب حاكمها شتّى الطرق من أجل وقف السيل العثمانيّ، بحيث يروى المؤرخ "بابنجر" أنهم حاولوا اغتيال السلطان محمد الفاتح أربع عشرة مرّةً فيما بين عامي (١٤٥٤-١٤٧٩م)، غير أن جميع محاولاتهم باءت بالفشل.

لقد توفي "أُوزُونْ حسن" في العام ذاته، الأمر الذي قضى على آمال البندقية بالكامل، وكانت الأزمة المالية والمجاعة على أشدّهما، فقد شنّت فرق "آقنجي" العثمانية هجومًا عام (١٤٧٨م) على البندقية في وقتٍ كان المحصول فيه على وشك الحصاد، وهو ما تمخّض عنه حدوث مجاعةٍ في البندقية في شتاء ذلك العام، ولأن شعب البندقية معتادٌ على الحياة المترَفة والعيش في رغدٍ وأمانٍ، فلقد ضاق ذرعًا من رؤية "آقنجي" الأتراك الذين كانوا يغيرون على أراضيه كالصاعقة في أيّ وقتٍ من العام صيفًا وشتاءً، ودفعت هذه الأوضاع شعب البندقية إلى مغادرة منازلهم والعيش داخل خنادق وملاجئ أنشؤوها تحت الأرض، وبدأت الجماهير العريضة في البندقية بالضغط على الحكومة من أجل توقيع معاهدة سلامٍ مع العثمانيّين مهما كلّف الأمر، وذلك بعدما ضجروا من الحروب المتواصلة منذ ستة عشر عامًا؛ إذ كانت الهجمات العثمانيّة المباغتة قد دمّرت الموارد الاقتصادية للبندقية بالكليّة، وقد أضحت هذه الهجمات المسمار الأخير في نعش المجر والبندقية بعدما جعلتهما تَجثُوان على ركبتيهما.

وفي نهاية المطاف أرسلت جمهورية البندقية الدبلوماسي "جيوفاني داريو" الذي كان واحدًا من أمهر الشخصيّات الدبلوماسيّة في عصره،

-كما أنه كان يعرف الأتراك عن قربٍ- إلى إسطنبول بغرض السلام مانحةً إيـاه "صلاحياتٍ غير مسـبوقة" في خطـوةٍ لم تُقدمْ عليها فـي أيّ فترةٍ من فترات تاريخها الطويل.

جندي إنكشاري

انتهت الحرب الطويلة الممتدّة على مدار ستة عشر عامًا منذ عام (١٤٦٣م) بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية بتوقيع معاهدة سلامٍ بتاريخ الخامس والعشرين من يناير/كانون الثاني (١٤٧٩م)، وقد استخدم العثمانيون كافة إمكاناتهم الاقتصادية والسياسية والعسكرية لينجحوا في هزيمة جميع جيوش التحالف الكبير في البحر والشرق والغرب، واستطاعوا القضاء على جمهورية البندقية بشكلٍ نهائيّ، وهي التي كانت أقوى دول التحالف مع دولة "آقْ قُيُونْلُو"، وكان السلطان محمد الفاتح يلجأ لتقديم عروض سلامٍ وهميّةٍ إلى أعدائه في أوقات الحروب الشرسة، ومن ثم يُطيل أمد المفاوضات من أجل مراوغتهم، وما إن يكسب المعركة في الحرب المندلعة على الجبهات الأخرى، يعود ليقضي على الدولة التي راوغها ضاربًا مثالًا حيًّا على أنه لم يكن قائدًا عسكريًّا محنّكًا فحسب، بل في الوقت نفسه دبلوماسيًّا حاذقًا.

وقد نصّت هذه المعاهدة على إخلاء البندقية لأراضي ألبانيا وتسليم شبه جزيرة "بيلوبونيز" والجزر المحيطة بها، فيما يعيد السلطان سواحل منطقة "دالماسيا"، كما وافقت جمهورية البندقية على دفع خراج سنويّ للدولة العثمانية بقيمة عشرة آلاف قطعةٍ ذهبيّةٍ، إضافةً إلى سداد دينها السابق البالغ مائة ألف قطعة ذهبية، كما تدفع تعويضات عن الحروب بقيمة مائتي ألف قطعة ذهبية، على أن يستطيع تجّار البندقيّة مزاولةَ أنشطتهم التجاريّة في أراضي الدولة العثمانيّة بحرّيّة تامّةٍ، ذلك لأن السلطان محمد الفاتح أراد إنعاش اقتصاد دولته وفصل البندقية من جديد عن المتآمرين الصليبيّين في أوروبا، وبهذه الطريقة يكون السلطان قد

نجـح في إخراج البندقية من ألبانيا وبيلوبونيز ومنطقة شـمال بحر "إِيجَه" لتبقى الدولة العثمانية القوّةَ الوحيدة المسيطرة على الإقليم الواقـع جنوب نهر الدانوب.

وفـي الواقـع فإن جميـع شـعوب شـبه جزيرة البلقـان كانوا يرجّحون الخضـوع لحكم العثمانيّين على أن تُدار شـؤونهم من قِبل أتباع المذهب الكاثوليكي.

ويـرى المؤرّخون العثمانيّون أن هذا النصر الكبير الذي حقّقته الدولة العثمانية بنجاحها في الإيقاع بين أتباع المذاهب النصرانيّة المختلفة، كان بمثابة إرهاصة للمستقبل الباهر الذي كان ينتظر العثمانيين في أوروبا.

وافـق دوق البندقيـة علـى معاهدة إسـطنبول للسـلام يـوم الخامس والعشـرين من أبريل/نيسان عام (١٤٧٩م) الموافق عيد "سان ماركو (*San Marco*)"، ومن ثم أُعلنت نصوصها وموادها للشـعب، وقد أوفدت الدولة العثمانية مبعوثًا يُدعى "لطفي بك" لاسـتلام نسـخةِ المعاهدةِ الموقّعة من قبل دوق البندقية، وقد وقّـع هذا المبعوث اتفاقيّةً سرّيّةً ثانيةً مـع البندقية، حيـث نصّـت هذه المعاهدة الجديدة على أنـه إذا دخلت أيٌّ من الدولتين فـي حربٍ ضـدّ أيّ دولـةٍ أوروبّية وطلبت مسـاعدةً مـن الدولة الأخرى، فـإن البندقيّة تسـاعد العثمانيّين بمائة سـفينة حربيّة، فيما يقـدم العثمانيون للبندقية مائة ألف فارسٍ مقاتل، وكان السلطان محمد الفاتح يخطّط لفتح الأراضي الإيطالية؛ إذ نجح في شلِّ قدرات البندقية من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى دفَعَها إلى الانضمام لمعادلةٍ ستضعها في موقفٍ لا تُحسَدُ عليه في مجال السياسة الأوروبية.

بعـد أن حقّق العثمانيّـون انتصارًا على جمهوريـة البندقية، كثّفوا جلَّ تركيزهم بعد ذلك على منطقة وسـط أوروبـا، وحان وقت إخضاع ألمانيا والنمسا والمجر وبولندا، ففي يوم الرابـع والعشرين من أغسطس/آب عام (١٤٧٩م) عبـرت فرقـة من "آقنجـي" الأتراك حدودَ "البُوسْـنَة" وهاجمت المنطقـة الواقعة جنوب وادي نهر الدانوب بين "بودابسـت (*Budapeşte*)" و"براتيسـلافا (*Bratislava*)"، وقد شـارك في هذه العملية العسـكرية ثلاثةً وأربعيـن ألـف مقاتـل مجهّزٍ بكافّـة الأسـلحة، بحيث يعتبر هـذا الهجوم واحـدًا من أكبر الهجمات المباغتة التي شـنّها "آقنجي" الأتراك في تاريخ الدولة العثمانيّة.

واسـتهدف هـذا الهجـوم تدميـر مناجـم الذهـب والفضـة فـي إقليم "ترانسـيلفانيا (*Transilvanya*)"، وعندمـا تقدّمـت هذه القـوّات إلى الأمام انقسـمت إلـى أجنحـةٍ متفرّقةٍ، وكان علـى رأس هذه الوحدات اثنا عشـر من حكام السناجق "آقنجي"، وقاد هذه العمليّة العسكريّة "مِيخَائِيل أُوغْلُو الغازي علاء الدين علي باشـا"، ورافقه عددٌ من أشـهر "آقنجي" في ذلك العهـد مثـل "ميخائيل أوغلو إسـكندر بك"، و"مَالْكُـوجْ أوغلو بالي بك"، و"أَوْرَنُوسْ أُوغْلُو عيسى بك"، و"أَوْرَنُوسْ أُوغْلُو حسن بك"، ولم يتهرّب قادةُ ذلك الجيش من الدخول في معارك ميدانيّة ضدّ قوّات العدوّ، والسبب فـي ذلـك أن تعدادَ الجيش في هـذه المرّة كان كثيرًا بما فيـه الكفاية، غير أن هـذه الهجمات التـي روّعت وأرعبت ألمانيا والنمسـا والمجر، كلّفت الأتراك خسائر فادحة، فقدْ سقط نحو عشرين ألف مقاتل في وديان المجر الخضـراء اليانعـة، وقـد اندلعت أكبـر معركـةٍ ميدانيّةٍ خلال هـذه العمليّةِ العسـكريّةِ يوم الثالث عشـر من أكتوبر/تشـرين الأول عام (١٤٧٩م) عند

وادي "كينيرميـزو (*Kenyermez*)" - الـذي يطلـق عليه الأتـراك وادي "كَلَّه (*kelle*)" (أي: الرأس) - الواقـع بين سلسلة جبال "كَارْبَاتْ (*Karpat*)" ونهر "موروس (*Maros*)".

تحـرّك جيـش المغاويـر العثمانـي مـرّةً ثانيـة عـام (١٤٨٠م) انتقامًا للخسـائر التـي تكبّدها في هجوم العام السـابق، فدخلت قـوّات المغاوير ولاية "كارنيول" يوم التاسـع والعشـرين من يوليو/تموز، فيما هاجم فرع آخـر مـن الجيش مدينة "إيسـتيريا"، ودخلت القـوّات العثمانيـة عددًا من البلدات الواقعة على طول الطريق، واستطاع جناحٌ ثانٍ من أجنحة الجيش الوصـول إلـى مدينة "جراتـس (*Graz*)"، لدرجة أن شـعب مدينة "ميونـخ" الألمانيـة لـم يشـعر بالأمان في ظلّ هـذه الهجمات المتتالية، فشـكّل قوّة ميليشـيا قوامها ألفًا وسـتمائة شخص من سـكّان المدينة بقرارٍ من مجلس البلديّة، ووضـع مدفعًا صغيرًا في برج كنيسة "سانت بيتر".

## البحر الأسود يتحول إلى بحيرة تركية

أقرّ العثمانيون بِحُرّيةٍ ممارسة الأنشطة التجارية لتجار "جنوة" في أراضيهم عقب فتح القسطنطينية، وانتقلت منطقة "جالطة" التي كانت مستعمرةً تابعة لها من الجنويّين إلى الدولة العثمانية، وسنرى لاحقًا أن العثمانيّين سيسعون لبسط نفوذهم على المناطق المحيطة بالبحر الأسود في إطار خطّةٍ محدّدة طبّقوها في السنوات اللاحقة، وأنهم سيُغلقون مياه البحر الأسود أمام سفن سائر الدول الأخرى، ليتحوّل بذلك البحرُ الأسود إلى ما يشبه البحيرة التركية، وبهذه الطريقة يكون العثمانيّون قد بسطوا سيطرتهم على حركة التجارةِ الحيّة في المنطقة، ما يعني أنهم أجبروا دول أوروبا على تبعيّتهم من الناحية الاقتصادية.

والسبب في ذلك أن طرق التجارة القادمة من "أستراخان" و"كابول" و"جرجانية" و"إيران" كانت تصل إلى دول أوروبا عبر موانئ البحر الأسود، ويتمّ توزيع الحرير القادم من سواحل بحر "قزوين" والبهارات القادمة من الهند من خلال هذه الموانئ،

هذا إضافةً إلى أن هذه المنطقة كانت تشهد نقل السفن للبضائع التجارية مثل القمح، والفراء والجلود وشمع العسل والأسماك والملح والكافيار وغيرها من الشرق إلى الغرب.

وينقل لنا المؤرخ العثماني "كمال باشا زاده" الحيويّة التجارية في المنطقة بحديثه عن مدينة "فيودوسيا"، فيقول:

> "هي مدينةٌ كبرى أُنشئت على الساحل الشمالي للبحر الأسود، يأتيها التجّار من كلّ حدبٍ وصوبٍ، ويوجد بالمدينة سوق يجتمع فيه التتار من أهل القرم والشراكسة ونصارى الروس من أجل التجارة وتبادل المصالح".

ضغطت الدولة العثمانية وخانية القرم عام (١٤٥٤م) على مدينة "فيودوسيا" عاصمة مستعمرات جنوة في البحر الأسود، واستطاعتا إجبار حكومة جنوة على دفع خراجٍ سنويٍّ إليهما، وفي العام نفسه هدّد الأسطول العثمانيّ مدينة "أكيرمان"، وطالب حاكم "بوغدان" بدفع الخراج.

وكانت "أكيرمان" تحملُ أهمّيّةً كبيرةً بالنسبة لتجارة منطقة شمال أوروبا، إضافةً إلى ارتباطها بالبحر الأسود والمضائق الهامّة في المنطقة، فقبِل ملك بوغدان سداد الضرائب للعثمانيّين والإقرار بتبعيّته لهم على أن يعترفوا له بحقّ ممارسة الأنشطة التجارية في أراضيهم، ومع قبول إمبراطورية طرابزون الرومانيّة هي الأخرى دفع الخراج للدولة العثمانية عام (١٤٥٦م)، صارت جميع الدول المطلّة على البحر الأسود تعترف بالسيادة العثمانيّة في المنطقة.

ورغب السلطان محمد الفاتح في الفترة اللاحقة في ترسيخ السيطرة العثمانيّة في كافّة هذه الدول بشكلٍ مباشرٍ، وسيفرض السلطان سيطرته

لاحقًا على مدن "أماسرا" و"سينوب" و"طرابزون"، أي سواحل البحر الأسود الجنوبية، إلا أن الدولة العثمانية ستضطرّ للدخول في صراعٍ ضدَّ التحالف الصليبيّ بقيادة البندقية في الغرب وحلفائهم في الشرق "بني قَرَمَان" و"آقْ قُيُونْلُو" اعتبارًا من عام (١٤٦٣م)، وهو الأمر الذي سيبعدهم عن الاهتمام بأمر سواحل البحر الأسود لسنواتٍ طويلةٍ.